الخطبة الثالثة والثلاثون

لا تحقرن من المعروف شيئاً

فرحمة الله تعالى ليس لها حدود، فهي وسعت كل شيء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيبًا، ملء السموات والأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت يا رب العالمين، اللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد كله والشكر كله والثناء الجميل يا إله العالمين، أما بعد:

صحيح أن الله سبحانه وتعالى أخرج آدم من الجنة بذنب ارتكبه، وأخرج إبليس من الجنة بذنب ارتكبه، وأن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق، وأن الله سبحانه وتعالى أمر برجم الزاني المحصن -أي: المتزوج أو كان متزوجًا-. وكل هذا لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى، وما هو واضح أن في هذه الأحكام صيانة للأعراض، وصيانة للممتلكات وحماية للمجتمع، والمهم من هذا -والله أعلم- حتى لا يستهين الإنسان بالذنب. وقد بين رسول الله ﷺ ذلك من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنبه كذباب مر على أنفه قال به هكذا، وأشار بيده على أنفه» رواه البخاري.

وأن يكون الإنسان دائمًا حريصًا على الاستغفار والتوبة وفعل الصالحات، وقيل للحسن البصري: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود؟ قال: ودّ الشيطان لو ظفر منكم بهذا، فلا تملوا الاستغفار. أي: إن الشيطان يتمنى أن يوقعك في اليأس من مغفرة الله سبحانه، ويتمنى لو أنك تكون من القانطين فتترك

التوبة والاستغفار، فتُحرم بترك التوبة والاستغفار من رحمة الله سبحانه ومغفرته.

وقال أحدهم:

أتفرح بالذنوب وبالمعاصي ... وتنسى يوم يؤخذ بالنواصي
وتأتي الذنب عمدا لا تبالي ... ورب العالمين عليك حاصي

ولما حضرت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الوفاة قالوا له: ماذا تشتكي؟ قال رضي الله عنه: أشتكي ذنوبي، وسألوه: ماذا تشتهي؟ قال: رحمة ربي.

وكما أننا لا نستهين بذنب، أيضاً فإننا لا نستهين بمعروف، فربنا سبحانه وتعالى يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب، قال ﷺ: «إن عبداً أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت فاغفر لي، فقال ربه: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي، قال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء» حم - ق عن أبي هريرة.

وقد ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً رائعاً في الذي يرتكب الذنب فوق الذنب والمعصية فوق المعصية، ثم لا يتوب ولا يستغفر فقال ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ صاحبها تهلكه» حم - طب - هب والضياء عن سهل بن سعد.

فيا عبد الله لا تستهِن بمعروف، ولا تستهِن بعمل صالح، لأنك تتعامل مع الغفور الرحيم، تتعامل مع رب العزة أرحم الراحمين، ملك الملوك. فعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر الله له» حم - عب - حب.

وعن الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى الله في اليوم مئة مرة» مسلم - حم.

والسؤال الذي في نفسي: لِمَ يتوب عليه الصلاة والسلام في اليوم مئة مرة وهو عليه الصلاة والسلام لم يرتكب ذنباً ولم يرتكب كبيرة؟! وحاشا لله أن يفعل ذلك سيد الخلق وحبيب الحق.

قال بعض أهل العلم: 1- إنه يتوب ويأمر بالتوبة ليعلمنا ذلك، 2- وقالوا: لأن العبد قد يرتكب ذنباً أو يقول كلمة أو ينظر نظرة أو يؤمئ إيماءة لا تصح ولا تصلح ولا تليق فيتوب ويستغفر، 3- وقالوا: إن الغفلة من الذنب فقد يغفل الإنسان عن أمر بالمعروف أو نهي عن منكر أو أن يفعل خيراً، أو أن يذكر الله تعالى، قد يغفل عن أن يحمد الله ويشكره ويذكره إذا دخل أو خرج، فالتوبة والاستغفار تجزئ عن ذلك، 4- وقالوا: قد يسرف الإنسان فيضيع وقته أو ماله ويسترسل في المباحات، 5- وقالوا: إن المؤمن يجب أن يكون حاله مع الله تعالى دائماً وأبداً في حالة الاستغفار والتوبة، وقالوا: هي حالة الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه، والتذلل إليه سبحانه وتعالى، والتواضع إليه سبحانه وتعالى، وأني دائماً محتاج إلى عفوه ورحمته وفضله وكرمه ومغفرته، 6- وقالوا: إنه ما دام الإنسان -أياً كان- مجبولاً على الخطأ والزلل لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» الترمذي - ابن ماجه - الحاكم، لذلك ما دام هذا حالنا مع الخطأ فلا بد من المداومة على التوبة والاستغفار، 7- وقالوا: لأن الله تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 2/ 222]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: 42/ 25]، 8- أنا عبد والعبد يستغفر لأنه لا يؤدي حق خالقه ولنا في الملائكة أسوة حسنة عندما قالوا: «ما عبدناك حق عبادتك» السلسلة الصحيحة (941)، نحن لا نعلم موازين الرحمة

والمغفرة، موازين الرحمة والمغفرة بيد الله سبحانه وتعالى، والذي عليّ فعله هو المداومة على عمل الصالحات صغيرها وكبيرها، فلعل العمل التافه في أعيننا فيه جنة عرضها السموات والأرض، فموازين الأعمال بيد الله سبحانه وتعالى ووصية الرسول عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه يجب أن تكون نُصب أعيننا إذ قال له: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» مسلم (2626).

وقال عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخّره، فشكر الله له فغفر له» البخاري (624)، مسلم (1914).

وقال عليه الصلاة والسلام: «في كل كبد رطبة أجر» البخاري (2363)، مسلم (2244).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة» البخاري (1351) - مسلم (1016).

وجاء أبو ذر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال ﷺ: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قلت: أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك عن الناس فإنها صدقة» متفق عليه.

وكان هناك امرأة فقيرة ليس لها نسب تعتز به ولا قرابة يشدون أزرها، ولا تملك شيئاً تفتخر به، وليس لها ذرية تفخر بهم ولم يكن يؤبه لها أو لمجيئها وذهابها، ولم يكن لها ذكر بين الناس، كانت هذه المرأة تأتي إلى مسجد رسول الله ﷺ والذي كانت أرضه تراب وحصى، كانت تأتي فتلقط القذى والأوساخ والعيدان وما يرمى به، فكانت هذه المرأة تنظف المسجد وتذهب لحالها، لا تأخذ أجراً ولا تبتغيه ولا ترجو شكراً ولا مديحاً، توفيت هذه المرأة ليلاً ولم يدر أحد بها، فقام بعض الصحابة بتجهيزها ودفنها

ليلاً، وبعد أيام قليلة سأل رسول الله ﷺ عنها، فقيل له: إنها قد ماتت ودفنت ليلاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا كنتم آذنتموني» فقال عليه الصلاة والسلام: «دلوني على قبرها» فدلوه فذهب عليه الصلاة والسلام إلى قبرها وصلى عليها، ودعا لها عليه الصلاة والسلام رحمة بها وشفقة عليها وشكراً لها على ما قدمته. رحم الله أم محجن -فقد كان هذا اسمها-، رحمها الله تعالى وغفر لها وجمعنا بها تحت ظل عرشه يوم القيامة.

قال ﷺ: «إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله سبحانه وتعالى ينورها بصلاتي عليهم» مسلم.

وأسأل نفسي الآن: إذا كانت القبور مملؤة ظلمة على أهلها، وبصلاته عليه الصلاة والسلام تُنَوّر، فكيف ننوّر قبورنا اليوم ورسول الله قد مات؟

قال بعض أهل العلم في هذا الشأن: ألم يقل عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما من أحد يسلّم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام»؟ رواه أبو داود وصححه النووي رحمه الله، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً» م (408).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة، فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً» رواه البيهقي.

فبصلاتك على رسول الله ﷺ يصلي الله عليك عشراً، فأكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، لعل الله تعالى يُنوّر قبرك وقبورنا، اللهم آمين.

وأكثروا من الصلاة، لأن عليه الصلاة والسلام ذكر الصلاة يوماً فقال ﷺ: «من حافظ عليها كانت له نوراً، وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا نجاة، ويأتي يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف»

حم – الدارمي – الطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص وصححه أحمد شاكر رحمه الله.

وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» مسلم.

فيا عبد الله بادر قبل أن تغادر، وافعل الصالحات مهما صَغُرت فأنت لا تدري أي باب من أبواب السماء مفتوح، ولا تدري لعلها ساعة إجابة وقبول، ولا تدري لعل الله سبحانه يرى منك رِقَّةً في قلبك أو إخلاصاً في عملك، أو ذلاً وتواضعاً لعظمته، أو دمعة في عينك أو كظماً لغيظ، أو أمسكت لسانك أو يدك خوفاً منه، أو أعطيت شيئاً وأنت إليه في حاجة، أو جبرت خاطراً، أو أحييت نفساً بكلمة طيبة أو أدخلت السرور على قلب أخيك المسلم، أو فرجت هماً لا تعلم مداه عند صاحبه ولكن الله يعلم، أو قضيت ديناً، أو أطعمت جائعاً.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» متفق عليه.

قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: 90/ 11 – 16].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد جنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين» البخاري (1323) – مسلم (945).

وعن أبي جري الهجيمي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنا قوم من أهل البادية فعلمنا شيئاً ينفعنا الله تبارك وتعالى به، فقال ﷺ:

«لا تحقرن من المعروف شيئـًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وتسبيل الإزار فإنه من الخيلاء، والخيلاء لا يحبها الله عز وجل، وإن امرؤ سبك بما يعلم فيك، فلا تسبه بما تعلم فيه، فإن أجره لك ووباله على ما قال» مسند الإمام أحمد – صحيح المسند.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا» الترمذي، وقال عليه الصلاة والسلام: «حُرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس» حم.

عن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنهما: جلس إلى النبي ﷺ رجل له ابن صغير يحبه كثيراً، فافتقد الرسول الرجل فقالوا: هلك ابنه، فذهب إليه رسول الله ﷺ فعزاه وقال له: «يا فلان أيهما كان أحب إليك: أن تتمتع به عمرك؟ أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟ قال: يا نبي الله بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي هو أحبّ إليّ، فقال عليه الصلاة والسلام: فذاك لك» النسائي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من وسع على مكروب كربة في الدنيا وسع الله عليه كربته في الآخرة، ومن ستر عورة المسلم في الدنيا ستر الله عورته في الآخرة، ومن نفس عن مكروب كربة في الدنيا نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، والله في عون المرء ما كان المرء في عون أخيه» مصنف عبد الرزاق.

وقال عليه الصلاة والسلام: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئـًا قال: لا، قالوا: تذكر، قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أن ينظروا المعسر، ويتجوزوا عن الموسر، فقال الله عز وجل: تجوزوا عنه» متفق عليه، وفي لفظ مسلم: «قال تعالى: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي» مسلم.

قال ﷺ: «أَوَلَيس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة، وبكل تحميدة صدقة، وبكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال يكون له أجر» حم - م عن أبي ذر رضي الله عنه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم